الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

دوافع رحلة علماء تلمسان إلى فاس خلال القرن الثامن الهجري/14م

Causes of Lemkinian Scholars' Scientific Journey to Fez in the Eight Century Hijri

أ. بوكريديمي نعيمة
أستاذة مساعدة قسم «أ» قسم التاريخ -جامعة الشلف جامعة حسيبة ين بوعلي الشلف-

ملخص

تعد الرحلة بشكل عام مدرسة تثقيفية في حياة الفرد وحياة المجتمعات فبفضلها يمكن للفرد أن يطلع على كل خبايا وأسرار الكون من جهة، كما يمكنه من خلالها أن يتعرف على ثقافات غيره وعادات وتقاليد وقيم وديانات المجتمعات ويميز بينها.

وتصب رحلة علماء تلمسان إلى فاس خلال القرن الثامن الهجري (14م) في هذا الجانب، ومن خلال الاطلاع عليها يمكننا الوقوف على أهم العوامل التي جعلت من مدينة فاس قبلة للعلماء من كل حدب وصوب وعلى رأسهم التلمسانيين، ومن هذه العوامل الدوافع العلمية وعلى رأسها مكانة فاس العلمية والتي نقف عليها في انفتاح البيئة الفاسية وحرية الأخذ العلمي بها، واختصاصها بالعلوم الفقهية وإنشاء المدارس، ووفرة الكراسي العلمية، والمكتبات والخزائن العامة هذا زيادة على الرغبة في الاستزادة العلمية ولقاء المشيخة والعوامل السياسية والمتمثلة في إنشاء المجالس العلمية في طرف السلاطين المرينين، وما كان يلعبه العلماء من أدوار سياسية وما يقومون به من تأثير في حل القضايا العالقة من مسائل الحل والعقد والمضايقات السياسية كما يمكننا من خلالها التعرف عل أصناف العلوم التي كانت سائدة بها والتي غرفوا منها زيادة على الدوافع التي دفعتهم إلى الرحلة باتجاهاتها.

الكلمات الدالة: الرحلة العلمية تلمسان، فاس، الدوافع العلمية، الدوافع السياسية.

Abstract

Traveling for studying, learning and teaching is a very important act to acquire some secrets of the life of other people. By the 8th century Hijri, the city of Fez in Morocco becomes the center of the cultural and scientific movement in all the Maghreb. Indeed the liberty and diversity were the most causes of her success. Religious studies such as low, Quran studies and Hadith, were the most important fields of study and research, therefore many scholars from the city of Tlemcen in Algeria immigrate to Fez to participate in the development of Islamic civilization in the west of the Islamic world.

Keywords: *Scientific journey Tlemcen, Fez, Scientific motives.*

مقدمة

تعد الرحلة من الظواهر التي شهدت اهتماما واقبالا من طرف المغاربة بشكل عام، والتلمسانيون بشكل خاص، باعتبارها أكثر المدارس تثقفا للفرد والمجتمعات، ولذلك حث عليها الإسلام، ودعى الأفراد إلى ممارستها، لأن طلب العلم مرغوب فيه ومثاب عليه، ومن هذا المنطلق فلا غرابة إذا مارس علماء تلمسان منذ وقت مبكر، وبحكم صلة الجوار والقربى الرحلة باتجاه مدينة فاس خلال فترة القرن الثامن الهجري /14م، مدفعين بجملة من العوامل بالرغم من الجو السياسي المتأزم.

أما الهدف التوخي من وراء تطرقنا لهذه الدراسة، فيتمثل في إبراز ذلك التواصل، وذلك الإنفتاح وتلك الرابط الثقافية التي تميزت بالنشاط بين الحاضرتين تلمسان وفاس، والوقوف عند مختلف الدوافع التي ساعدتهم على الرحلة باتجاه الحضرتين.

جلبت مدينة فاس أنظار علماء تلمسان منذ وقت مبكر بحكم صلة الجوار والقربى، فرحل إليها عدد لا يحصى، وقد ورد ذكرهم ضمن كتب الطبقات والتراجم والسير، وبدأت عملية التواصل العلمي والثقافي والبشري بين فاس وتلمسان. وما لبثت أن استمرت في التطور كما وكيفا وخاصة في زمن حكم الموحدين والمرنيين على وجه الخصوص.

ومن الدوافع والأسباب التي تحكمت في توجيه هذه الرحلة نذكر:

أ/الدوافع العلمية

1ـ مكانة فاس العلمية

بلغت مدينة فاس في القرن الثامن الهجري/14م أوجها الثقافي بين حواضر العالم الإسلامي عامةوالمغرب الإسلامي على وجه الخصوص مثلما هو الشأن بالنسبة لكل من تونس و بجاية، و قد أشادت المصادر بمكانة و أهمية فاس العلمية، فقد وصفها عبد الواحد المراكشي في نهاية القرن السادس الهجري/ (12 م-13م) ضمن كتابه المعجب في قوله : " هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا، و موضع العلم منه اجتمع فيها علم القيروان، و علم قرطبة، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس، كما كانت القيروان حاضرة المغرب ،فلما اضطرب أمر القيروان بعيث العرب فيها، و اضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت محمد بن أبي عامر المنصور و ابنه ، رحل من هذه و هذه من كان فيها من العلماء ، و الفضلاء من كل طبقة فرار من الفتنة ، فنزل أكثرهم بمدينة فاس، فهي اليوم على غاية الحضارة ، و أهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ، لغتهم أوضح اللغات في ذلك الإقليم ، ومازلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب وبحق ما قالوا، فانه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظرف و اللباقة في كل معنى الا و هو منسوب إليها وموجود فيها و مأخوذ منها " [1]

أما ابن القاضي المكناسي ، فقد قال عنها : " فلم تزل مدينة فاس كلاها الله تعالى من حيث أسست دار فقه و علم و دين ، و هي قاعدة بلاد المغرب و قطبه و مركزه [2] ، و قد ذهب ابن زرع في سياق حديثه عن مدينة فاس قائلا : " لم تزل من يوم أسست مأوى الغرباء ، من دخلها استوطنها و صلح حاله بها [3]، كما قال أيضا : " و قد نزلها كثير من العلماء و الفقهاء و الصلحاء و الأدباء و الشعراء و الأطباء وغيرهم . فهي مند القديم دار فقه و حديث و عربية و فقهائها الفقهاء الذين يقتدى بهم فقهاء المغرب ، و لم يزل ذلك على مر الزمان " [4]

وقد نقل صاحب كتاب "مفاخر البربر" صفات في غاية الأهمية عن مدينة فاس قائلا بشأنها : "كان بفاس من الفقهاء الأعلام الآجلة الأعيان الأنام ماليس في غيرها من بلدان الإسلام ، إذ هي قاعدة المغربو دار العلم و الأدب، و لكن أهلها أهملوا ذكر محاسن علمائهم ، و أغفلوا تخليد مفاخر فقهائهم [5] وبالمثل أشاد أحد مؤرخي هذه المدينة بمكانة أهل فاس الثقافية ، إذ قال عنهم : " أدباء أذكياء و أن مدينتهم قلعة لرجال الأدب و المثقفين أكثر من أي مدينة أخرى ، حيث أنها مركز عظيم يجمع عدد كبير من الحكماء والعاملين بالأدب و الشعر [6].

أما بخصوص جوتيه، فقد قال حول تشيد مدينة فاس : "أنها أعظم عمل قام به الأدارسة ، فهي ترمز بحق لمجدهم و عبقريتهم ، وهذا العمل إذا نظرنا إليه من زاوية تركيز الحضارة الإسلامية في المغرب فهو يفوق ما قامت به دولة أخرى بالمغرب من قبل و من بعد [7]

إن هذه النصوص في مجملها تكشف لنا عن المكانة الراقية و المتطورة التي بلغتها مدينة فاس خلال القرن الثامن الهجري/14م، و التي ترجع بناء على ما ورد في هذه النصوص إلى عوامل خارجية نذكر منها هجرة موجات من علماء قرطبة والقيروان محملين بالقيم الحضارية نحو المغرب الإسلامي، و ذلك نتيجة لفتنة القرن الخامس الهجري على اثر موت محمد بن أبي عامر المنصور، و ابنه بقرطبة، و تخريب الثانية في منتصف نفس القرن على يد القبائل العربية، و احداثهم ثورة ثقافية، حيث بفضلهم ستنتشر اللغة العربية بين البربر، و يصبح من السهل عليهم فهم النصوص الإسلامية، و بفضلهم سيعزز مذهب أهل السنة وسينتشر مذهب الإمام مالك بعدما مهد لها إدريس الثاني الطريق بالقضاء على اليهودية و المسيحية و على بقايا الوثنية و استئصاله لمذهب الخوارج.

وبذلك فقد ساعدت هذه الهجرة الخارجية من القيروان سنة (657هـ/1259م) ومن قرطبة بالأندلس (636هـ /1238 م) على إعطاء المنطقة الطابع الإسلامي.

1.1 انفتاح البيئة الفاسية و حرية الأخذ العلمي

لقد لوحظ خلال القرن الثامن الهجري/14م تزايد في عدد العلماء و الطلبة التلمسانيين نحو الحاضرة العلمية فاس،

و تعود أسباب ذلك إلى فتح هذه الأخيرة أبوابها أمام جميع العلماء و الطلبة من المقيمين أو من الوافدين عليها للدراسة و الأخذ عن أشهر العلماء الذين كانت تعج بهم من المغاربة أصلا أو من المغاربة بالنشأة و التكوين [8].

و عليه فلا غرابة إذ كانوا العلماء التلمسانيون كغيرهم من العلماء خلال هذه الفترة ينتقلون بكل حرية في هذه الحاضرة العلمية يتطارحون القضايا و المشاكل ، و يقيمون العديد من المناظرات الفكرية [9] و التي شجعت العلماء والطلبة الراغبين لحضورها على الرحلة باتجاهها.

كما نجد أن المرينيينعرفوا بحرية الأخذ و الميل العلمي و الذي يبرز في عدم تدخلهم لتوجيه الفكر توجيها معاكسا، و إنما تركوا لمن يهمهم الأمر حرية الاختيار ، و في هذا الإطار، فان فقهاء المغرب هم الذين اختاروا بمحض إرادتهم العودة إلى المذهب المالكي ، بينما كان دور الدولة لا يعدو عملية التنفيذ المعزز بالتشجيع ، و بالتالي كان لهذا الموقف أثره في في نهضة الفقه المالكي خلال هذه الفترة [10] ، هذا زيادة على حرية اختيار الطلبة لمادة اختصاصهم والشيوخ الذين يدرسون عليهم والتي كانت من الأمور الشائعة.

1ـ2اختصاص فاس بالعلوم الفقهية

لقد اشتهرت مدينة فاس خلال القرن الثامن الهجري/14م كمركز ديني و ثقافي في بلاد المغرب الإسلامي، و انفردت بطابعها الفقهي زيادة على كونها موطنا للعلوم الشرعية و اللسانية، و بعض فروع الفلسفة حيث نجد أسرا بأكملها أصبح يشار إليها بالفقه ،و هذا ما يوضحه كتاب "بيوتات فاس الكبرى" لمؤلفه ابن الأحمر الذي تناول فيه أكثر من ثمانين بيتا من الأسرالفاسية، منها بيت بني الملجم (ت492هـ/1099) [11] و الذي استفتاه يوسف ابن تاشفينااللمتوني حين أراد الجواز إلى الأندلس لإصلاح أمرها [12].

و يعود الفضل في شهرتها هذه إلى وجود جامع القرويين الذي يعتبر من أهم المساجد الجامعة في بلاد المغرب الإسلامي، و أكثرها شهرة، باعتباره جامعة إسلامية عريقة يمكن مقارنتها بجامع الأزهر في القاهرة و إلى اهتمام المرينيين الذين حرصوا على رد الاعتبار للفقهاء الذين فقدوه أيام الموحدين، و ذلك بتدوين ما أحرق من هذه الكتب الفقهية ، زيادة على المدارس المتعددة التي بنيت زمانهم بالقرب من المسجد المذكور تشجيعا للعلم و لأهله و ترسيخا للمذهب المالكي في بلاد المغرب الإسلامي ، و جمع المغاربة حوله لما عرف عنه من سلامة و صدق مقارنة بغيره من المذاهب [13].

و عليه، فقد شهدت فاس في وجود جامع القرويين خلال القرن الثامن الهجري/14م تقاطر العديد من العلماء و الفقهاء التلمسانيين الراغبين في طلب العلم والتدريس ، و من ثم مساهمتها في تخريج عدد كبير من العلماء الذين حملوا لواء مشعل الثقافة الإسلامية في تلمسان وغيرها عبر القرون [14].

و بذلك فقد شكلت فاس لمميزاتها القديمة المركزة على الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، و التأليف في دراسة الفقه المالكي والعناية الفائقة بعلوم الدين ، خاصة علم التصوف ونشرها بين مختلف الشرائح الشعبية سواء بالبوادي أو الحواضر [15] خلال القرن السابع و النصف الأول من القرن الثامن الهجري/14م ، قبلة للعلماء ويدل على ذلك العدد الهائل الذي أصبحت تعج به من طلبة كتاب الله من التلمسانيين خلال هذه الفترة المعنية بالدراسة ، قبل أن ينحرف التصوف خلال القرن التاسع الهجري/15م إلى التصوف الشعبوي [16].

كما أن الجو الروحي الذي ساد الحاضرة فاس خلال القرن الثامن الهجري/14م و المتمثل في هيمنة روح التصوف و سيادتها على مختلف المستويات ، و الذي يشهد عليه العدد الكبير من الزوايا والربطات التي كانت تشكل مأوى للطلبة و الفقراء من المتصوفة و كثرة الأضرحة كان له الدور الكبير في شد التلمسانيين رحالهم إلى فاس للأخذ من شيوخها أو زيارة أضرحتها و أوليائها أو الانضمام إلى زاوية خاصة أو رباط معين أو حضور موسم سنوي يجتمع فيه المتصوفة ويتصل فيه كل مريد بشيخه [17].

و عليه فقد تكون الرحلة بهدف الاتصال بالشيوخ المتصوفة من أجل التبرك بلقائهم و الفوز بدعواتهم الصالحة و مصاحبتهم و التعبد معهم و الاقتداء بهم و التخلق بأخلاقهم ، فهذا أبو زيد عبد الرحمن القرموني يرحل إلى مكناسة لمصاحبة الشيخين أبي محمد عبد الله بن أحمد و أبي عبد الله بن عمر بن الفتوح التلمساني ، و ملازمتها هناك تسعة أعوام ، وهكذا كنا لا نجد شيخا صوفيا إلا و له مريدوه يرافقوه أينما حل وارتحل.

و كما تعلق الناس بالشيوخ الأحياء في زواياهم و أماكن عبادتهم ، قصدوا الأولياء الأموات في أضرحتهم فابتداء من القرن الثامن الهجري/14م ،أصبح التبرك بالأولياء و الأضرحة يعتبر من القربى حيث يلجأ الناس إلى أضرحتهم كلما حل بهم أمر ، أو شعروا بضيق أو طلبوا فرجا من كربة أو أرادوا أن يستخيروا في أمرلم يهتدوا فيه إلى جواب شاف، فهذا الرحالة المتصوف أحمد زروق الذي أكثر من زيارة الأولياء و ملازمة أضرحتهم يخبرنا بأنه : " كان إذا زار أبا مدين وجد الرحمة و أحس بالفيض و خاطبه الشيخ من قبره" [18].

و لم يكن زروق وحده يعتقد هذا الاعتقاد ، و لكنه كان مناخ العصر ، تأثر به الكل و انطبع به الجميع [19]، أما الحسن الوزان فقد تحدث عن مزار الشيخ أبي يعزى الذي كان له شأن في المغرب عامة و فاس خاصة قائلا : " يخرج أهل فاس لزيارة هذا الضريح بعد عيد الفطر من كل سنة في جموع كثرة رجالا و نساء و أطفالا و كأنهم جيش زاحف" [20].

و منه نستنتج أن مدينة فاس كما شكلت عبر تاريخها مركز علميا و حضاريا باعتبارها منارة للعلوم والمعارف، قد شكلت مركزا روحيا ، الأمر الذي جعل منها محطة للقاءات الفكرية و الحضارية و العلاقات الإنسانية.

3.1إنشاء المدارس و إقامة الكراسي العلمية

أ.إنشاء المدارس العلمية

إن أوسع عملية لبناء المدارس عرفتها مدينة فاس تعود إلى القرن الثامن الهجري/14م ،إلى جانب العدد الكبير من الزوايا و الرباطات ، فقد بلغ عدد المدارس التي أنشأت في مدينة فاس وحدها عشرة مدارس كلها تعتبر قمة في الإتقان و الإبداع.

والواقع فان إشادة هذا العدد الكبير من المدارس من قبل المرينيين خلال القرن الثامن الهجري/14م بفاس كان الهدف من ورائه استضافة الغرباء، وإيواء الطلبة وتثقيفهم من الذين يريدون عليها من سائر جهات و أطراف البلاد و خارجها.

و لهذا لا غرابة إذا وقع الإقبال على طلب العلم بفاس، نتيجة لتوفر هذه المدارس التي أبدى الطلبة والعلماء ارتياحهم بها حسب قول قاضي فاس محمد بن أبي حاج الجزولي (ت755هـ/1354م) [21].

سكنى المدارس عز والدرس فيها معز
فادرس هديت كثيرا فانه لك كنز

ب.وفرة الكراسي العلمية

برزت ظاهرة الكراسي العلمية زمن المرنيين بجامع القرويين و فروعه نتيجة للتقدم الفكري و العلمي في مختلف المعارف و العلوم ، و استتباب الأمن والنهضة العلمية الجبارة التي شهدتها فاس و مثيلاتها من المدن المغربية الرئيسية [22] .

و للإشارة، فقد كانت في بداية الأمر بسيطة فتية، ثم مافتئت تتطور بالتدريج حتى أصبحت تدرس أمهات المصنفات في مختلف الفنون و العلوم يقوم بها كبار الأستاذة و الشيوخ الذين لهم قدم راسخة في العلم و يحضرها ألاف الطلبة الذين جاءوا من كل حدب و صوب تحدهما الرغبة في تلقي العلم و أخذه عن فرسان المعرفة.

و قد كانت ولاية الكراسي بالقرويين ولاية رسمية كولاية القضاء و الفتية و الوزارة ، يتولى تعيين هؤلاء العلماء السلطان أو من يقوم مقامه، و لا يستند هذا المنصب إلا بتوفر على مؤهلات و خصائص علمية كبيرة [23].

جـ.أهم الكراسي بجامع القرويين

❖ **كرسي المدرسة المصباحية** : خصص للفقه و النحو. وقد تصدر للتدريس على هذا الكرسي عدد لا يستهان به من العلماء منهم الأستاذ الذي سميت المدرسة باسمه أبو الضياء بن عبد الله اليلصوتي (750هـ/1349م) ، و الإمام أحمد الونشريسي صاحب المعيار وولده عبد الواحد ، ثم صار الكرسي إلى قاضي الجماعة عبد الواحد الحميدي، و كان يدرس التهذيب في اختصار المدونة لابن البرادعي (ت400هـ/1009م) [24].

❖ **كرسي مدرسة العطارين** : و كان مخصص للفقه و النحو ومواد أخرى ، كان محل تنافس بين العلماء للتدريس به ، ذلك لوجوده بجانب جامعة القرويين أما عن أشهر الفقهاء الذين كانوا يترددون على هذا الكرسي منذ أيام الدولة المرينية لذكر الأستاذ محمد بن أحمد الفشتالي (777هـ/1375م) الذي كان يدرس المدونة و كان من تلاميذته في هذه الفترة ابن الأحمر، و الرياضي المشهور ابن البناء (ت 723هـ/1323م) [25]

د-أهم كراسي مسجد الأندلس

لقد عرف مسجد الأندلس عدة كراسي علمية تناولت مختلف العلوم و الفنون ، و عرف عدد كبير من العلماء الأعلام ، و هو الأمر الذي جعله ثاني مركز للتدريس بعد القرويين ، و لذلك ظل هو الأخر محل تنافس كغيره من الكراسي العلمية بين أعيان العلماء الذين كانوا يرحلون إليه من جامعة القرويين بفاس أو بلاد المغرب الإسلامي بشكل عام ، و على رأسها علماء تلمسان قصد الفوز بدرس فيه ، و من أشهر كراسي مسجد الأندلس نذكر :

❖**كرسي مسجد الأندلس المعروف بالمستودع** :إذ كان يدرس به أبو العباس أحمد المزوار و كانت تستفيد منه و تنصت إليه بعض من نساء هذه المدينة [26].

❖كرسي المدرسة المتوكلية : تعاقب على هذا الكرسي كبار العلماء من سائر المغرب الكبير ، كما أن من أساتذة هذا الكرسي الفقيه أبا العباس أحمد الحباك و الفقيه أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن البكري الدلائي [27] و قاضي القضاة المقري الجد (ت 759هـ/1358م).

و هكذا ساهمت هذه الوفرة من الكراسي العلمية التي عرفتها الحاضرة العلمية فاس خلال القرن الثامن الهجري/14م، و التي تجاوز عددها أربعين مائة كرسي في جلب العديد من العلماء و الطلبة التلمسانيين اتجاه فاس ، و ذلك نظرا لما كانت تلعبه في تفعيل الجانب التثقيفي والعلمي.

4.1وفرة المكتبات و الخزائن العامة

إلى جانب إنشاء المدارس عمل المرينيون على توفير الكتاب، و ذلك بتعميم نظام المكتبات في المساجد و المدارس، ذكر الحسن الوزان بخصومها قائلا : احتوت في جلها على كتب نفيسة و مصنفات مفيدة" [28].

و عموما فقد عمل الملوك و الحكام على توفير الكتب و إيصالها إلى طلبة العلم سواء من المقيمين منهم أو الوافدين [29]، و مع ذلك ينبغي الإشارة إلى أن فضيلة جمع الكتب لم تكن خاصة بمن بيدهم الأمور، بل تنافس عليها في ذلك العلماء والأفراد على السواء، فهذا عبد المهيمن الخضرمي (ت749هـ/1348م) كانت خزانته تزيد على ثلاثة ألاف سفر في مختلف العلوم [30]، ولا شك أن الكثير من علماء عصره لهم نفس الاهتمام بالكتب و الحرص على جمعها للاستفادة والدراسة.

كما عرف السلطان أبو عنان في هذا الجانب بإنشائه لأهم مكتبة نواتها تتمثل فيما بعثه الملك سانشو عام 684هـ/1285م طبقا لشروط صلحه مع الملك يعقوب المريني نظرا لكثرة هذه الكتب و تنوع فنونها ومواضيعها[31] فقد احتوت على أنواع من علوم الأديان و الأبدان و الأذهان و اللسان و غير ذلك من العلوم على اختلافها و شتىأجناسها ، و قد عين عليها قيما ليضبطها و ذلك سنة 750هـ/1349م ، و هذا إلى جانب خزانة المصاحف التي في قبلة الجامع والتي أعد فيها جملة كثيرة من المصاحف الحسنة المخطوطة.

2ـ الرغبة في الاستزادة العلمية و لقاء الشيوخ

لما كان طلب العلم مرغوب فيه ،مثاب عليه في الإسلام ، فقد شد طلبة العلم التلمسانيون رحالهم كغيرهم من الرحالة إلى الحواضر العلمية الكبرى ، و على رأسها الحاضرة العلمية فاس ، تدفعهم الرغبة في الاتصال بعالم معين أو مجموعة من العلماء طلبا لمزيد من الدراسة لإتمام معلوماتهم و الإحراز على الرواية و على السند ، لا في الحديث فقط ، ولكن أيضا في رواية الكتب و العلوم الأخرى [32].

إن السعي إلى نيل الشرف في سلسلة الإسناد العالي ضروري في الدين خصوصا إذا كان هذا الإسناد يرتفع إلى الرسول صلى الله عليه و سلم ولهذا كان الرحالون يفتخرون بما حصلوا عليه من أسانيدعالية ويعدون ذلك أهم مكسب لهم في رحلاتهم ، و مصدر فخر لهم على غيرهم ، و لذلك فالرحلة والسعي إلى لقاء العلماء و الاتصال بهم لنهل منهم مشروعة وواجبة عليهم.

و من جهة أخرى، فقد كان سعي البعض الآخر من وراء ممارسة هذا النوع من الرحلات هو اكتساب مناهج جديدة وأساليب متطورة في التعليم و التأليف و الحصول على الإجازات العلمية (*) التي تمكن من يتوج بها من أن يصبح شيخا و هو لقب الأساتذة الذي يجعله في مصاف العلماء و الفقهاء و الأدباء و له مكانة في المشيخة العلمية .

وهكذا لا نكاد نجد مغربيا في هذه الفترة اشتهر أمره و تفوق على غيره في حقول العلم و المعرفة إلا وكرع من حياض هذه الحاضرة العلمية و جلس للأخذ من علمائها و شيوخها

3ـ الدوافع السياسية

إنالمتتبع لسيرورة التاريخ السياسي لدويلات المغرب الإسلامي التي قامت على أنقاض دولة الموحدين و نعني بذلك الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى ، و الدولة الزيانية التي نشأت في النصف الأول من القرن السابع الهجري (633هـ/1235م) بالمغرب الأوسط و الدولة المرينية(668هـ/1269م) بالمغرب الأقصى يدرك جيدا أنه لم تعد تلمسان في أوائل القرن الثامن الهجري/14م مدينة ذات كيان مستقل عن المغرب ، بل أضحت في هذه الفترة تحت حضرة بني مرين في عهد كثير من ملوكهم و حول ذلك قال الحسن الوزان : "و قد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس، أي بني مرين الذين احتلوا مملكة تلمسان نحو عشرات المرات حسبما جاء في التاريخ ، و كان مصير ملوك بني زيان حينئذ القتل أو الأسر أو الفرار إلى المغارات عند جيرانهم الأعراب و تعرضوا أحيانا أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس [33].

و عليه فمن خلال هذه الوقائع و الأحداث الأخيرة ، نستنتج أن بلاد المغرب الأوسط أصبحت خاضعة لسلطة المرينية إما بشكل مباشر أو غير مباشر ، و ذلك بالتدخل في شؤونها الداخلية سياسيا من خلال المساهمة في تنصيب سلاطين موالين لها من الأسرة الزيانية لخدمة أغراضهم السياسية.

ومع ذلك فقد صاحب هذا الامتداد المريني الهادف إلى بسط النفوذ على دولة بني زيان بالقوة العسكرية انتقال عدد كبير من العلماء و الفقهاء من تلمسان إلى فاس ، و قد قربهم سلاطين بني مرين إليهم لما عرفوا به من غزارة علم و ذكاء خارق ، كونوا بهم مجالسهم العلمية و على رأسهم السلطانان أبو الحسن المريني (732-742هـ/1331-1348م) و أبو عنان فارس المتوكل (749-752هـ/1348-1358) اللذان قال فيهما ابن مرزوق " أنهم هم أهم علماء عصرهما" [34] أثناء حملاتهم الموجهة ضد الزيانيين و الحفصيين في سبيل تحقيق مشروعهم التوسعي ، الأمر الذي أتاح للمقري الجد الأخذ عن شيوخ آخرين غير أبناء أو علماء المغرب الأوسط.

و من خلال هذا يمكننا أن نستنتج أن حصار ملوك المغرب الأقصى لتلمسان سنة 737هـ/1337م كما كان نقمة على أهل المغرب الأوسط بحكم ما ألحقه من خسائر في العمران و الأرواح كان نعمة و يظهر ذلك من خلال جلب هؤلاء الملوك المرنيين العلماء من فاس ممن يتميزون بالمكانة العلمية الرفيعة أو ممن تم استدعائهم من تلمسان و إلحاقهم بمجالسهم العلمية التي كانوا قد أعدوها للمذاكرة و المناظرة من أمثال الندرومي (من القرن الثامن الهجري) والمقري الجد (ت759هـ/1358م) و الأبلي (757هـ/1356م) و ابن الإمام و أبو زيد (ت743هـ/1342) و عيسى (749هـ/1348م) وغيرهم كثيرون ، و قد نتج عن الالتقاء والاحتكاك الذي تم بين علماء تلمسان ونظرائهم من مدينة فاس ، تشجيع عملية الأخذ و العطاء ، وظهور أعلام ذاع صيتهم في الكثير من أصقاع العالم الإسلامي ، و ليس بلاد المغرب الإسلامي فحسب [35].

و عليه ينبغي الإشارة إلى أن الدوافع السياسية التي كانت تقف وراء رحلة علماء تلمسان إلى الحاضرة العلمية فاس خلال القرن الثامن الهجري 14م تجلت مظاهرها في ما يلي :

أ.تشكيل المجالس العلمية من طرف السلاطين المرينيين: و نقصد بالذكر المجلس العلمي الخاص بأبي الحسن المريني (732هـ-749هـ/1348-1331م)، حيث و مهما كانت مواقف العلماء من رجال السلطة ايجابية أم سلبية ، فإن الذي نريد أن نؤكده هو أن هؤلاء الأعلام كانوا يحضون باحترام السلاطين

رغم وجود نقاط الاختلاف ، وذلك نظرا لما كانوا يتمتعون به من مكانة عند عامة الشعب و رجال السلطة.

وعليه فقد ساهم رجال السلطة المرينيين من خلال تشكيلهم لهذه المجالس العلمية و ترحيبهم بالعلماء بها في انعاش الحركة العلمية و الفكرية بالمغربين الأوسط و الأقصى ، و ذلك من خلال بروز كوكبة من أشهر العلماء الذين تفتخر بهم تلمسان و فاس بوجه خاص ، و المغرب الإسلامي بوجه عام كالعالم الأبلي (ت757هـ/1356م) والذي قربه السلطان أبو الحسن المريني لمجلسه نظرا لما رآه فيه من نبوغ علمي وأصبح أحد أعضائه البارزين و المقري الجد (ت759هـ/1358) و الذي قربه السلطان أبو عنان لمجلسه وولاه خطة القضاء بمدينة فاس و غيرهم كثيرون.

أما عن سر اهتمام الملوك و السلاطين المرينيين بتشكيل المجالسالعلمية ، فيعود ذلك إلى ما كان يلعبه هؤلاء العلماء الأعلام من أدوار سياسية، و ما يقومون به من تأثير في حل القضايا العالقة من مسائل الحل و العقد ، و التي تتلخص في التوسط لحل الخلافات السياسية بين الدول المغاربية ، والسعي لإبرام الصلح بين المتنازعين داخل الدولة الواحدة وغيرها من القضايا .

و في هذا المقام، يجدر بنا الإشارة إلى ذكر تدخل الوالي أبي زيد عبد الرحمن الهرمزي (ت706هـ/1306م) [36]، الذي كان يحاول من خلاله رفع حصار الثمانية سنوات المضروب على تلمسان من قبل السلطان أبي يعقوب المريني ، و ذلك بعد مرور سبع سنين عليه ، إلا أنه قبل بالرفض،و الأدهى من ذلك أنه تم قتله على يد أحد خصومه بعدما رجع هذا الوالي لفاس ، و نزل بجامع الصابرين و هو موضع مبارك [37].

فبالرغم من ذلك، فان مواقف العلماء و سلوكاتهم ، لم تكن دائما معارضة لسياسة السلاطين ، كما هو الشأن بالنسبة للوالي أبي زيد عبد الرحمن الهزميري (ت706هـ/1306م) الذي عارض الحملات والتدخلات المرينية داخل الدول المغاربية الأخرى، و إنما توجد هناك شريحة من العلماء ممن كانوا يفضلون حياة الاختلاط برجال السلطة و التقرب منهم، و ذلك من خلال التوسط في حل الكثير من الخلافات السياسية أو السعي لإبرام الصلح بين المتنازعين داخل الدولة الواحدة أو التدخل إلى جانب طرف لنصرته ضد الطرف الأخر ، وخير دليل على قولنا هذا ما ورد عن ابن خلدون من مجهودات و أدوار سياسية في هذا المجال و مجمل القول ، فان استفادة علماء تلمسان و غيرهم لم تكن مقصورة على احتكاكهم بأعضاء المجالس العلمية المرينية و أخذهم عن شيوخها بفاس ، بل نالوا خطوة ممتازة لدى السلطان أبي الحسن المريني (749-732هـ/1348-1331م)و ابنه أبي عنان (ت759هـ/1358م) حيث ارتقوا في ظلهم إلى مناصب رفيعة مثل عبد الرحمن ابن خلدون الذي قربه السلطان أبو عنان منه و ألزمه الرحيل معه ، وولاه منصبي الكتابة والتوقيع بين يديه [38]

ب- المضايقات السياسية

و يقصد بها جملة الأسباب التي يتوخى صاحبها من ورائها الهروب مما يحيط به من مشاكل والبحث عن مكان أخر يطمئن فيه.

و من هنا يتبين أن هذا النوع من الرحلات يصنف ضمن الرحلات اللاإرادية الإجبارية لأنه يدخل ضمن الضغوطات السياسية التي تستهدف خدمة أو قضاء مصالح شخصية معينة.

و عن أبرز العلماء التلمسانيين الذين تعرضوا لهذا النوع من المضايقات والتي حتمت عليهم مغادرة بلدهم الأصلي تلمسان نحو العاصمة المرينية فاس نذكر العلامة محمد بن إبراهيم العبدري التلمساني الشهير بالأبلي (ت757هـ/1356م) [39].

أما عن سبب مغادرته لبلده الأصلي نحو الحاضرة العلمية فاس ، بعد أن خرج وعاد إلى تلمسان ، وقد انبعث إلى تعلم العلم و قراءة المنطق والأصليين على يد أبي موسى ابن الإمام يقول ابن مريم " ثم أراد أبو حمو صاحب تلمسان إكراهه عل العمل ،ففر منه إلى فاس ، و اختفى هناك عند شيخ التعاليم خلوف المغيلي اليهودي فأخذ فنونها و مهر فيها [40] ، كما يضيف قائلا : " فارتحل إلى مراكش و نزل على الإمام ابن البناء شيخ المنقول و المعقول ، فلازمه و تطلع عليه و اجتمع عليه طلبة العلم [41] فكثرت إفادته واستفادته ، أما ابن خلدون فيذكر أن سبب هروبه يعود إلى رغبة السلطان أبي حمو ابن السلطان أبي سعيد في تعيينه ضابطا لجباية أمواله و ذلك لعلم هذا الأخير بتقدمه بعلم الحساب [42] .

و يبدو من خلال هذه النصوص، أن رفض الأبلي لمطلب السلطان الزياني راجع لعزوفه عن الأمور السياسية ، وذلك لارتباطها بمصالح العباد و السلطة ، أي المصالح الدنياوية.

و لذلك فلا غرابة إذا فضل الهروب خشية من أن يستعمل ويسخر في قضاء مآرب السلطان الشخصية، وهذه ليست صفات العلماء أمثاله ممن عرفتهم العاصمة فاس، و ساهمت بشكل كبير في إبراز قدراتهم و احترام مستواهم العلمي، و هو الشيء الذي حال دون تحقيقه في بلده ، حيث انكب عليه طلبة العلم من كل حدب وصوب ، و انتفع بعلمه خلق كثير، و كون تلاميذ عدة نذكر منهم الشريف أبو عبد الله (ت771هـ/1369م) وابن الصباغ (ت 749هـ/1348) و غيرهم ، ومن ثم انتشر علمه واشتهر ذكره خصوصا لما لقاه من عناية و احترام من قبل السلاطين المرينيين الذين وصفهم مؤرخهم بأنهم كانوا : " من أحسن الملوك سيرة و سياسة و نباهة ، لذلك استفحل ملكهم و طالت دولتهم ، و عظمت صولتهم وبلغ عدد ملوكهم ثمانية وعشرون ملكا ومدة دولتهم بضع و خمسون و مائة عام [43].

وبناء على ما سبق ذكره، يمكننا القول بأن محاولة السلطان استغلال الأبلي في الأمور السياسية هو الأمر الذي دفعه إلى الفرار من بلده الأصلي باتجاه فاس لأنه باختصار كان رجل علم و ليس رجل سياسة.

خاتمة

وفي الختام يمكننا الوقوف عن جملة النتائج التالية:

- ازدهار مركز فاس الثقافي في العهد المريني والذي تجلى في تنوع العلوم وعلى رأسها العلوم الدينية التي تشمل علم القرآن وعلم الحديث والفقه والتصوف، والعلوم اللسانية من نحو وبلاغة وصرف ونثر وشعر وعلوم اجتماعية كالتاريخ والجغرافيا، وعلوم طبيعية وعقلية كالحساب والفلك والطب والصيدلة.[44]

- انفرد مدينة فاس بجامع القرويين كمركز ثقافي عريق بالمغرب الإسلامي واسهامه في تنشيط الحركة العلمية واحتضائه للكثير من العلماء المشهورين الذين ساهموا في تخريج العديد من طلبة العلم وعلى رأسهم طلبة تلمسان.[45]

- اهتمام السلاطين المرنيين بإنشاء المؤسسات التعليمية والمجالس العلمية التي سعوا من خلالها إلى ضم كبار علماء المغرب وحرصهم على نشر العلم وتطوير طرق التدريس التي كانت تعتمد على الحفظ عن ظهر قلب دون محاورة أو مناقشة.

- سيادة العلوم الدينية، لاسيما دراسة القفه الذي كان له المقام الأول في هذا العصر حيث تعددت تأليف العلماء في هذا النوع من العلوم ونشر تعليقاتهم على المؤلفات السابقة.

- رغبة علماء تلمسان في التحصيل والاستزادة العلمية ولقاء الشيوخ واكتساب علو السند والحصول على الاجازة العلمية والعديد من المؤلفات النادرة بالإضافة إلى زيارة أضرحة المتصوفة، ومن ثم المساهمة في عملية الأخذ والعطاء، وذلك من خلال التزود بالعلم من جهة، والمساهمة في نشره من خلال عقد جلسات التدريس، بالإضافة إلى تولي مختلف المناصب الإدارية السامية كمنصب القضاء أو التمثيل الدبلوماسي أو الكتابة وغيرها من الخطط السامية

- تنوع رحلات التلمسانيون اتجاه مدينة فاس خلال هذه الفترة المعنية بالدراسة، فهناك رحلات علمية إرادية اختيارية كان هدفها التحصيل العلمي لرحلة العالم محمد بن النجار، وهناك رحلات سياسية إجبارية كرحلة العالم التلمساني الابيلي الذي هرب باتجاه فاس خوفا من تسخير علمه لأغراض سياسية، وهناك منها الرحلات الدائمة كرحلة أبي عبد الله المقري التلمساني، وهناك رحلات مؤقتة إكتفى أصحابها بالتحصيل، وبعد إتمام ذلك فضلوا العودة لمدينة تلمسان.

- من نتائج تلك الرحلات تكوين جيل من فضائل العلماء الذين ساهموا من خلال ما تزود به من علوم ومعارف في تطوير الحركة العلمية بالحاضرتين تلمسان وفاس على حد السواء.

- التلاحق الفكري ودعم الروابط الثقافية بين الحاضرتين.

- تمتين الروابط الثقافية بين المدينتين بالرغم من الصراعات السياسية المشحونة بالحروب والفتن.

- الاحتكاك والتقارب وغرس ثقافة الانفتاح على الأخر بين الحاضرين، من خلال اتاحة فرصة الحوار والمناظرة والتعمق في البحث.

الهوامش

(1)-عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، شرحه و اغتنى به صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية،بيروت،الطبعة الأولى،2006،ص257. العربي أكنينج، تأسيس أول دولة عربية إسلامية في المغرب الأقصى ، قيام الدولة الإدريسية ،نشأة مدينة فاس مطبعة أميمة،الرباط،-2008الطبعة الأولى،ص67.

(2)-ابن القاضي المكناسي،جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس ، دار المنصور للطباعة و الوراقة الرباط ، 1974 ص42

(3)-ابن أبي زرع ،الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس ، دار المنصور الرباط ، 1972 ، ص ص 37-36

(4)-نفسه ، ص 37

(5)-مجهول مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباية "رسالة ماجستير،جامعة وهران،1996 ص 243

(6)-ابن أبي زرع ،: المصدر السابق ، ص 36 ، الجزنائي، جنى زهرة الأس في بناء مدينة فاس ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور،الطبعةالثانية،المملكة المغربية،-1991ص39

(7)- Gouttier (F) و le passé de L'Afrique du Nord, paris 1952 , PP292-293

(8)-الجزنائي، المصدر السابق ، ص 63 ، ابن مرزوق المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن،تحقيق ماريا خيسوسبيغيرا،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،الجزائر 1981،ص205.

(9)-رشيد الزاوي ، التبادل العلمي بين المشرق والمغرب الإسلامي-مجلة الحضارة الإسلامية،العدد الأول 1993 ، ص 325

(10)-محمد المنونين، ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين-منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، الرباط،1979 ، ص 195

(11)-ابن القاضي، المصدر السابق ، ص 594

(12)-محمد بن معمر ، العلاقات السياسية والروابط الثقافية بين المغربين الأوسط والأقصى من نهاية القرن الثاني إلى أواسط القرن السادس الهجريين،رسالةماجستير،إشراف غازي جاسم،جامعة وهران، 2001،2002، ص349.

(13)-حسن الشاهدي،أدب الرحلة في العصر المريني، منشورات عكاظ،الرباط،1990 ، ص ص 33-32.

(14)- الصديق بن العربي ن كتاب المغرب،دار الغرب الإسلامي،الطبعة الثانية ،1984،ص 209

(15)-محمود بوعياد،جوانب من الحياة في المغرب الأوسط في القرن التاسع الهجري/15م ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1982 ، ص 51.

(16)-بوداود عبيد ، ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ما بين القرنيين السابع و التاسع الهجري /15-13م دراسة في التاريخ السوسيوثقافي،دارالنشر والتوزيع ، وهران 2003- ص 31.

(17)-حسن الشاهدي، المرجع السابق ، ج 2 ، ص 317

(18)-ابن قنفد ، انس الفقير وعز الحقير – تحقيق محمد الفاسي، أدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي جامعة محمد الخامس،الرباط،1965، ص71

(19)-حسن الشاهدي ، المرجع السابق ، ج2 ، ص 74

(20)-الحسن الوزان ،وصف إفريقيا ، دار الغرب الإسلامي ، الطبقة الثانية ، بيروت،1983،ج1 ص 162

(21) ابن القاضي المكناسي، المصدر السابق ، ج1 ص 229 ، درة الحجالفي أسماء الرجال تحقيق و تعليق مصطفى عبد القادر عطا منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية بيروت ، 2002 ، ص 204 .

(22)-إدريسعزوزي ،الكراسي العلمية بجامعة القرويين أيام ازدهارها و إشعاعها الفكري ، مجلة الحضارة الإسلامية ، العدد الأول ، وهران 1993 ، ص 103

(23)-نفسه ، ص 103

(24)-نفسه ،ص 114

(25)-نفسه ، ص 115

(26)-نفسه ، ص 116

(27)- نفسه ، ص 116

(28)-حسن الشاهدي ، المرجع السابق ، ج1 ، ص28

(29)-نفسه ، ص 28

(30)- ابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، تحقيق و تعليق محمد بن تاويهالطنجي ، نشر لجنة التأليف و النشر ، القاهرة ، 1951

(31)-حسن الشاهدي : المرجع السابق ، ج1 ، ص29

❖-السند : هو تسلسل الرواية من المحدث إلى الرسول صلى الله عليه و سلم ، و قد توسع فيه العلماء فجعلوه لكل علم بل ولكل كتاب سند يصلهم بواضع العلم أو بمؤلف الكتاب ، على زوين : معجم المصطلحات توثيق الحديث ، مكتبة النهضة العربية ،الطبعة الأولى،بيروت،1986 ص 13.

(32)-حسن الشاهدي، المرجع السابق ، ج2 ، ص 91.

❖الإجازة العلمية ،إنهاإذن من الشيخ لطالبه أو لعالم أخر في رواية الحديث الشريف أو الفقه أو التاريخ أو غيرها من العلوم ، ينظر شمس السخاوي : فتح المغيث ، ج2 ، ص 62 ، أو هي إذن في تولي منصب ما كالفتوى و التدريس و غيرها ، ينظر محمد المنوي ، و ورقات عن الحضارة المرينية ص 279 ، و هي أنواع الإجازة بالرواية ، و هي إذن من الشيخ للطالب بخطه أو بلفظه و بهما معا ليؤدي عنه رواياته من غير أن يسمع ذلك منه أو يقرأ عليه بموجب ذلك الإذن ، و هي الأكثر تداولا ، و الإجازة التعليمية و التي لا يمكن للطالب تحصيلها بعد القراءة على الشيخ و السماع منه ينظر عبد الله شعبان علي : اختلافات المحدثين والفقهاء في الحكم على الحديث ، دار الحديث ، القاهرة ، 1997، ص 239 ، و صلاح الدين المنجد ، إجازات السماع في المخطوطات القديمة في مجلة معهد المخطوطات العربية –شركة مساهمة مصرية ، مصر –ماي ، 1955 المجلد الأول ج ح ، ص 233

(33)-الحسن الوزان ، المصدر السابق ،ج 2 ص 8

(34)-ابن مرزوق ، المصدر السابق ، ص 260

(35)-حسن الشاهدي،المرجع السابق ، ج2 ، ص 94

(36)-نفسه ، ج2 ، ص 94.

(36) حسي ابن قنفذ في كتاب الوفيات أنه مات سنة 707 هـ ، ينظر بوداود عبيد- ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط ، ص 236

(37)- نفسه ،ص 236

(38)-ابن خلدون،المصدرالسابق، ص 59

(39)- نفسه ، ص 36

(40)-ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان تحقيق محمد بن أبي شب ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، دت ، 215

(41)- نفسه ص 215

(42)-ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،مطبعة بولاق المصرية،مصر،1284،ج1 ، ص 120

(43)-الكتاني ، فاس عاصمة الأدارسة و رسائل أخرى ، و ضع فهارسه واعتنى به الشريف بن علي الكتاني ،الطبعة الأولى،2002 ، ص 79.

(44)-فافة بكوش، أبو عبد الله المقري (ت:759ه) ورحلته العلمية بين تلمسان وحواضر المغرب الإسلامي، مذكرة ماجستير في التاريخ السياسي والثقافي لدول المغرب الإسلامي، جامعة تلمسان، 2012، ص30.

(45)-نفسه، ص30.